www.nowlebanon.com

"آخر صورة: هيي وقاطعة"... تحية وثائقية من وداد حلواني الى أوديت سالم

حسن عبّاس

"صباح الخير أوديت". تبدأ رئيسة لجنة أهالي المخطوفين والمفقودين في لبنان، وداد حلواني، فيلمها الوثائقي المعنون "آخر صورة: هيي وقاطعة". الوثائقي أعدّته وداد تحيةً الى المناضلة الراحلة أوديت سالم التي ذهبت ضحية حادث سير في 16 أيار 2009 بعد أربعة وعشرين عاماً من ألم انتظار عودة ولديها المخطوفين، ريشار وماري كريستين، الموجودين "على قيد الحياة والحبس في سوريا" بحسب ما ظلّت سالم تؤكده حتى رحيلها الأليم.

أوديت في وعي وداد

في حديث معها تقول حلواني عن أوديت سالم "هذه المرأة لم تغادرني عندما ماتت. لا زالت دائمة الحضور في ذهني الى الآن رغم مرور اشهر ثقيلة على رحيلها. هذه المرأة تبقى حاضرة امامي وتتكلم معي وتستكمل علاقتها بي".

حلواني عايشت سالم مرحلة طويلة. جمعهما السعي الى معرفة مصير ضحايا الإخفاء القسري منذ فترة طويلة. عندما كانت أوديت مستقرة في الخيمة التي نصبها أهالي المفقودين في حديقة "الإسكوا"، كانت حلواني تمرّ بسيارتها يومياً من جانب الإعتصام الواقع على طريق سيرها الى مقر عملها يومها في القصر الحكومي. "انا كنت اراها وهي لا تراني، وكنت اصبّحها كما صبّحتها في الفيلم. في ما بعد اخبرتها بأنني كنت اصبّحها من دون ان تردّ سلامي، فراحت تضحك"، تخبر حلواني.

ذكريات كثيرة جمعت السيدتين. "كانت تطلب مني المرور لآكل "مسقعة باذنجان" عندما كانت تطبخها في خيمة الاعتصام، فهي كانت تعرف انني احبّها"، تروي حلواني. ترى ان "أوديت كانت فعلاً امرأة جبّارة، وتستحق ان يقام لها نصب تذكاري" (سيتم وضع لوحة تذكارية لها في الحديقة).

اما رمزية أوديت فهي تكمن بحسب حلواني في كونها "نموذجاً لنا عن الصمود. لم تفقد الأمل ابداً، وماتت وهي تبحث عن اولادها. هي مدرسة قائمة بذاتها". لهذه الاسباب ارادت حلواني ان تكرمها على طريقتها، "وكأنني قاطعة الأمل في ان تكرّمها الدولة لأنها لا تنتمي الى عائلة بارزة سياسياً او مالياً".

فكرة اصبحت واقعاً

"صباح الخير"، يطلع صوت وداد في بداية فيلمها الوثائقي الصغير (16 دقيقة)، ثم تضيف متسائلة "حدا بيصبّح ميّت؟"... الفيلم الذي كتبت حلواني نفسها نصّ التعليق الوجداني عليه. ليست سينمائية وداد حلواني، هي صاحبة فكرة. عرضت فكرتها على إليان الراهب من جمعية "بيروت دي سي"، واخبرتها بما يدور في رأسها، فشجعتها على إنجازها و"اشرفت على العمل خطوة بخطوة".

الوثائقي استند على ارشيف صور أوديت سالم الشخصي كما على عمل المخرجين جان شمعون ومي مصري ("احلام معلّقة")، بهيج حجيج ("مخطوفون") وجوني كرليتش ("في غياهب الإنتظار") الذين وافقوا على ان تستخدم حلواني مقاطعاً من وثائقياتهم. هذا إضافة الى استخدام ارشيف المصورين طارق حداد، ميشال عون، غسان حلواني، رين محفوظ وسوسن ابو خالد.

عندما يتشابه شخصان بالمعاناة!

تروي حلواني في الوثائقي كيف جهّزت أوديت مرة طعام الغداء وتركت السلطة بلا زيت "تتضلّ طازة ومفرفحة مثلهم (أولادها)". ولكن أولادها لم يعودوا. كان ذلك في 17 أيلول 1985. بقي اولادها ذكرى حتى وفاتها، وانضموا في الفقدان الى زوجها ألبير الذي توفي عام 1982 بعد مرضه.

"بعرف شو معنى واحدة يموت زوجها"، تضيف حلواني. "ما أنا خطفولي زوجي في السنة ذاتها التي مات خلالها ألبير". وتستدرك: "يللي بيوجع اكثر إنّو هنّي ما ماتوا، ما عندن قبر، ولا لبستي أسود عليهم". "كيف بعدِك عايشة؟" كانت أوديت تُسأل ، فتجيب: "اسألوا ربّنا".

تعلّق حلواني على فكرة الوثائقي بأنها كانت ترى مشكلتها "اصغر بكثير من مشكلة أوديت"، هي التي فقدت زوجها غسان حلواني سنة 1982 اثناء احداث الحرب الأهلية اللبنانية. "عندما كنت اضع نفسي مكانها كنت اقول انني لا استطيع الصمود، فإذا سافر ابني ينشغل بالي". ولكنها تؤكد: "تبقى المعاناة متشابهة".

حديثاً بات البعض يقع في الخطأ وينادي حلواني بأوديت، ما يوحي بشبه هاتين الشخصيتين. تعلّق وداد على هذا الخلط بالقول: "لا أنزعج، ولكن ارى بصمات قوية تركتها هذه المرأة على كلّ منّا".

ستّ الخيمة

"قلبك وعقلك وروحك بعدن بالخيمة... ستّ الخيمة صرتي ونحن ضيوفك"، "بَركي جيتي تتبقي كل الوقت حدّ ولادك"، "صرتي عايشي مع الصور، تتصوّري مع الصور، تاكلي وتشربي مع الصور، بتنامي وبتفيقي مع الصور"، تقول حلواني للراحلة في الوثائقي.

بعد بدء اعتصام اهالي ضحايا الإخفاء القسري قرب "الإسكوا"، نقلت أوديت سكنها الى الخيمة. تتذكرها حلواني وتقول: "في الحديث معها كنت اشعر انها تغسل وجوه صور المفقودين صباحاً. كانت جاهزة دائماً لتجديد صور ريشار وكريستين. كانت تمارس دور الأمومة معهما حتى وهما مخطوفين". اهتمامها امتد الى كل الشباب المقتربين في العمر من اولادها، "كأنهم جميعاً صاروا ابنيها المخطوفين".

حب أوديت المكبوت لولديها فاض عنها. "كانت في منزلها تهتم بثياب ولديها، فكانت توضب الثياب الصيفية وتعدّ الثياب الشتوية للاستعمال شتاءً، وبالعكس"، توضح حلواني بكلمات تنافسها دمعة...

كانت تربطها علاقة خاصة بغازي عاد، رئيس "لجنة دعم المعتقلين والمنفيين اللبنانيين" ("سوليد")، "كانت تشعر أنه ريشار". كانت تطعمه بيدها. تروي حلواني انها عند ذهابها الى منزل أوديت، بعد وفاتها، للإطلاع عليه، رأت صورة تخرّج عاد موضوعة هناك.

قتل او خطف الباحثة عن الأمل

"الحقيقة إنّو الأهالي ما عادوا يدوّروا بسّ عا ولادن، صاروا يدوّروا عالأمل"، تقول حلواني في فيلمها الوثائقي. تظهر أوديت في الوثائقي وهي تقول "عندي ياها شغلي كبيرة إنّو عرفت وين ولادي" تعليقاً على الأخبار التي وصلتها عن وجود اولادها في سوريا. لم تكن أوديت تريد الموت. تتساءل في الوثائقي عن الذي سيبحث عن اولادها إذا ماتت. كانت تريد البقاء حيّة لمتابعة رحلة البحث عنهما.

تصف حلواني وفاة أوديت في الوثائقي بأنها "كانت كتير قوية، كتير عبثية، كتير مش قادرة لاقي الكلمة المضبوطة" وتضيف انها "بيّنت كأنها اقوى من جرائم الخطف يللي بسرعة كلّن نسيوا ضحاياها".

تعتبر حلواني ان سالم "قتلت او خطفت". ولتوضيح مقصدها من هذا الوصف تروي ان أوديت توفيت في عمر الخامسة والثمانين. قضت السنوات الاربع والعشرين الاخيرة منها في الطرقات بحثاً عن ولديها. "لو لدينا دولة بمعنى الكلمة، لم تكن لتسمح بأن تعيش امرأة بعمرها في الشارع. يجب ان تكون مكرّمة في بيتها". والدولة ايضاً، برأيها، "تعاملت بخفّة ولامسؤولية مع ملف المفقودين والمخطوفين الحساس". لو ان الدولة تحملت مسؤولياتها لما كانت أوديت رحلت جرّاء صدم السيارة لها.

أوديت التي عوقبت أولاً بخطف ولديها الوحيدين "تبدو كأنها عوقبت مرة ثانية لأنها ماتت قبل ان تعرف مصير ولديها".

قبل دفنها تنبّه غازي عاد لضرورة إجراء فحص "دي إن آي" لها تحسباً لإمكان الاضطرار للمقارنة بينه وبين "دي أن آي" جثث يمكن ان تكتشف. في البيان الوزاري السابق التزمت الحكومة بالكشف عن مصير المفقودين في البندين 23 و35، ولم تقم بشيء. الحكومة الحالية التزمت بملف المفقودين في البندين 15 و16. "ولكن نريد الترجمة العملية لهذه البنود"، تشدد حلواني.

تقول حلواني: "الآن، اضيفت صورة أوديت الى صور المفقودين في الخيمة. الإهمال يخطف ويقتل، وليس فقط الحرب، خاصة إذا كان الإهمال رسمياً".